

عوالم كافكا

إن من بين التقنيات الفنية التي تُميز نصوص كافكا الأدبية خاصية أن المغزى الذي يُكتسب في أثناء عملية القراءة سريعاً ما يتلاشى، كونه نوعاً من التفرغ الدائم من المعنى أو الانهيار الدائم والمتكرر لعملية بناء وتوليد المعاني، مما يحول دون الحسم النهائي لمغزى الصور والمجازات، ومما يعيد القارئ مجدداً لنقطة البدء في حركات دائرية أو بارابولية تؤدي لتراكم عديد من طبقات المعنى، بل إن هذه الخاصية تُخلخل المعنى وتكشف أدبية النص إلى حد بعيد. قوانين اللعبة هذه أو تلك الأساليب الفنية داخل النص هي التي تشكل وتلوّن اللغة الأدبية والخاصية الشعرية لنصوص كافكا. وهي نصوص لا تشير، في الغالب، إلى عالم ملموس ومحدود جغرافياً بعينها، وذلك بسبب تجردها من أي إشارة إلى مكان أو زمان أو سياق تاريخي أو ثقافي محدد؛ فهي لغة بدون (إقليم)، لغة منزوعة الوطن أو الإقليم (دولوز وكوتاري).

ويشبهه سندر جيلمان هذا النوع من الكتابة بعملية التحرير الصحفي، وكأن كافكا ينجزه بالفعل في رأسه، ثم يمارس فعل التدوين بعد محو كل شيء من نصوصه، "ويمكن من خلاله التعرف بشكل محدد على إدارته (كافكا) الذاتي للعالم". أي أنه يمحو في رأسه أي إشارة أو اسم أو شخصية أو علم أو واقعة تاريخية، ثم يشرع في الكتابة، ولا يندر أن تدفع هذه الطريقة في الكتابة بالقارئ إلى مأزق أو درب مسدود. هذا من ناحية السرد والحبكة الروائية، ولكن ما علاقة كافكا باليهودية؟

مثّلت علاقة كافكا باليهودية إشكالية جوهرية في تأويل أعماله، وكانت دوماً محورياً للجدل والنقاش بين النقاد. ويتضح هذا مثلاً من مداخلة أرنست بافل (أحد كتاب سيرة حياته) حول النزاع على هوية كافكا، وكونه كاتباً يهودياً في المقام الأول وليس ألمانياً.

ولكن هذا الجدل الذي احتدم بعد تحوله إلى أديب عالمي بعد موته بعقود كان قد بدأ بالفعل في أثناء حياته، حيث كان هناك من يُصر على تصنيفه. أما هو، فقد رفض هذا التصنيف بشكل تهكمي ساخر، كما يتضح من رسالته إلى فيلسه باور عام 1916. فقد وصف صديقه برود قصصه بأنها من أهم الوثائق اليهودية لهذا العصر، بينما وصفته في الوقت نفسه إحدى الصحف بأن كتاباته تعد أدباً ألمانياً أصيلاً. مما دعا كافكا للتّهمك سائلاً فيليسه باور في إحدى الرسائل: "ألا تريد أن أنت أيضاً أن تقول ما أنا في حقيقة الأمر؟". إذاً كافكا لم يكن يَعدّ نفسه منتبياً لأي هوية، ولا يرى ضرورة لهذا التصنيف، لكنه

كان بالطبع مهتماً بالتراث اليهودي، وخصوصاً فيما يتصل بتيارات وحركات التصوف، حيث أبهرته هذه العوالم التي تَعَرَّفَ عليها من خلال يهود أوروبا الشرقية؛ عوالم التدين الشعبي والتصوف. وقد انعكس هذا الانبهار بشكل كبير في أعماله ولكن بشكل غير مباشر.

تشير السيرة الذاتية لكافكا بوضوح إلى معرفته واتصاله بعالم التصوف اليهودي، حيث اطلع وهو اليهودي العلماني على الثقافة اليهودية الشرقية (شرق أوروبا) وحركات التصوف من مصادر مختلفة. ومن أهمها لقاءه بفرقة تمثيل مسرحية من أوروبا الشرقية جاءت إلى براغ، لتقدم عروضها بلغة اليديش، وهي اللغة التي فقدتها يهود غرب أوروبا مع الذوبان ونهاية حياة الكيتو أو بتعبير أكثر دقة الشتيتل، لكنها بقيت حية عند يهود شرق أوروبا. وكان فضول كافكا واهتمامه بهم كبيراً، فنمت بينه وبين الممثل إسحاق ليفي، أحد أعضاء هذا الفريق المسرحي، صداقة قوية. وبالإضافة إلى هذا توثق لنا يومياته تفاعلاً عميقاً مع التراث والتاريخ اليهودي الشرقي الذي راجت فيه حركات التصوف الجماهيرية، خصوصاً الحاسدية. وقد بلغ اهتمام كافكا بالتاريخ والثقافة اليهودية ذروته عندما انكبَّ بنهم على كتاب باللغة الفرنسية، يضم بين طياته 500 صفحة بالفرنسية لماير بينس عن تاريخ الأدب اليهودي الألماني (اليديشي). كما يمكن أن نعد صداقته مع جورج لانجر، المعروف بجيري، من أهم المصادر التي مكنته من فهم هذه العوالم الغربية عنه. وكان لانجر مثل كافكا يهودياً غريباً من براغ، ولكنه انكب بشدة على دراسة التصوف اليهودي، وعاش بعض الوقت مع المتصوفين الحاسديين في مدينة بيلتسي التي كان يصفها بنفسه بأنها "روما اليهودية". ولم يُطلع جيري لانجر صديقه كافكا فقط على الزعامات الروحية للحاسدية (الصدِّيقين أو الصالحين) بل هيأ له أيضاً الاتصال بهم، كما يصف كافكا في إحدى يومياته زيارته مع ماكسي برود ولانجر عند حاخام المعجزات بيتسكوف. بالإضافة إلى خبرة كافكا في التصوف، يضيف فالترينيامن في دراسته له جانب آخر وهو خبرة كافكا كإنسان حديث وابن للمدينة الكبيرة، والذي أدركه كافكا بأن وقع تحت طائلة جهاز بيروقراطي ضخم يتسم بالغموض وعدم الشفافية. كما أن وظيفة هذا الجهاز وطريقة عمله يسيطر عليها جهات أو كيانات مبهمه وغير معروفة لدى أعضاء الأجهزة التنفيذية أنفسهم ناهيك عن تعامل معهم من أفراد (القضية). وهذا العالم، عالم البيروقراطية والموظفين، الذي لا يقل غموضاً كما يصفه بنيامين، قد صار كافكا نفسه أحد ضحاياه.

وينتمي إلى هذا القطاع أيضاً طائفة من رجال القانون الذين يتميزون بلغة ذات خصوصية وتفاصيل فنية مأكرة. وكانت هذه اللغة مألوفة تماماً لكافكا الذي درس القانون ونال فيه درجة الدكتوراه، كما كان تماماً يعرف اللغة الجدلية لدارسي التلمود من المتدينين اليهود والمتصوفين. وتشير قراءة بنيامين لأعمال كافكا لحضور هذين العالمين بقوة داخل النصوص، كما تشير إلى إعادة إنتاج محورية السلطة الخفية لهذه العوالم ولكن بشكل فني أدبي مستتر، وبهذا فهي تفسر من ناحية الصراع المتواصل بين

الفرد والسلطة الغير مرئية كما تدرك من ناحية أخرى آليات التأويل اللانهائية داخل النص. فوجود الفرد أمام سلطة غير مفهومه وغير مرئية لا يستطيع التواصل معها يتناغم مع استحالة الوصول إلى فهم وحيد، وتأويل واضح. وينطبق هذا على كل من عالم البيروقراطية الحديثة والقانون وعالم التصوف الغامض، إذ أنّ كلاً من تفسيرات المدارس وشروح التلمود التي لا تنتهي، وأيضاً المذكرات القضائية المضنية والمراسلات البيروقراطية المتبادلة بين الموظفين ودوائر الأجهزة كلها على السواء بالنسبة إلى كافكا تنويعات مثالية لهذا التأويل المستحيل والانهائي، كما تمثل بجدارة شعريّة عدم الوصول، فأبطال كافكا لا يصلون، والرسائل لا تصل، والمعاني لا تتجلى في هذا السياق وداخل هذا المزيج بين عوالم سلطة روحية غيبية تراثية قديمة، وأخرى بيروقراطية واقعية حديثة، فيمكن فهم أعمال كافكا التي يغلب عليها تلك الأجواء الغرائبية والخليط العبثي بين الواقعي والخيالي.